الدكتور عمر أمرير

العصاميون
السوسيون في الدار البيضاء

- السلسلة الذهبية الأولى-

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة 2017

العثماني امحمد

1922م، 1984م

العثماني امحمد

1922 م، 1984م

هو امحمد بن عبد الله بن محمد العثماني. ولد سنة 1922 م، في قرية أسكاور من قبيلة أملن، بتافراوت الأطلس الصغير، إقليم تيزنيت الآن.

بدأ تعليمه بأخذه عن والده الفقيه عبدالله العثماني، ثم عن صفوة من فقهاء الأطلس الصغير. قبل أن يسافر إلى مدرسة «تانالت» بقبيلة أيت صواب، حيث سيتلقى تكوينا يجمع بين العلم الرصين، والتصوف العملي، والوطنية الواعية، على يد الشيخ العلامة الحاج الحبيب البشواري... فلازمه أزيد من ست عشرة سنة، من حوالي 1936 إلى 1952 م، ودرس عليه مختلف الفنون مما كان متداولا في المدارس العلمية السوسية آنذاك (الواح جزولة، العثماني ص 6).

أكيد أنه بالإضافة إلى الزاد العلمي ذاك، سيتأثر الطالب العثماني بالجوانب الأخرى من شخصية العلامة الحاج الحبيب الذي لم يكن « مجرد أستاذ لتلاميذه، بل كان لهم أيضا شيخا مربيا، وكان ذا نفحة صوفية، كثير العبادة والتهجد. جم التواضع، زاهدا، متفرغا للتعليم والتربية والتوجيه، وكان المثال الأعلى في سوس كلها في الصلاح والعلم

والجهاد ما يقرب من نصف قرن من الزمان. وتخرج على يده أفواج من العلماء تميزوا بما نفخ فيهم من حيوية الإيمان، وقوة العلم، وتحرر الفكر...» (نفسه، العثماني).

نعم، بعد 1952م، تاريخ تخرج الفقيه العثماني هذا، بعشرين سنة سنتأكد شخصيا في ضحى يوم 2 يناير 1972 م، من رسوخ خصلة "تحرر الفكر" في سلوك هذا الفقيه. ذلك أني أتذكر أن السنة الجامعية 1972/1971 التي ناضلنا خلالها قصد جعل العناية بالأمازيغية ضمن مطالب الإتحاد الوطني لطلبة المغرب (أ.و.ط.م). أقول : في خضم ذلك النضال، قمنا في بداية سنة التخرج بإجراءات إدارية لتسجيل بحثنا لنيل الإجازة بموضوع عنوانه: «شعر المقاومة الأمازيغي». ورغم الرفض الأول للبحث، فإن الأستاذ المشرف الدكتور عباس الجراري إنطلق في دفاعه عن بحثي من الزاوية العلمية ، وبذلك أقنع شعبة اللغة العربية في كلية الآداب بفاس بالموافقة على تسجيلنا أول بحث عن الشعر الأمازيغي في الجامعة المغربية لنيل الإجازة .

بعد التغلب على تلك الصعوبة، ونظرا لانعدام مصادر بحثنا في المكتبات، فإننا اضطررنا للسفر من فاس إلى سوس قصد جمع الشعر الأمازيغي من مظانه. أقول: خلال بحثنا الميداني ذاك ستصادفنا صعوبة لم نكن نتوقع داخل الكلية في فاس أن تواجهنا ميدانيا في سوس، ذلك أن بعض الأساتذة الكبار من الأمازيغيين السوسيين المعاصرين الذين نفترض أنهم سيساعدوننا بوثائق تفيدنا في دراسة وجمع الشعر الأمازيغي المهدد بالضياع، سنفاجؤ ببعضهم يشككنا في جدوى العناية بذلك الشعر ومن حسن حظنا أن الأستاذ العثماني حضر مجلسا، فرأى، وسمع كيف حاول بعض زملائه في التدريس الجامعي التأثير علينا للتراجع عن جمع

ودراسة مانحن بصدده في مجال الأدب الأمازيغي. كما اتهمنا أحدهم بأننا سنحيي الظهير البربري الاستعماري ببحثنا في الأدب الأمازيغي. وآخر بلغ به الأمر حد التعريض بالكلية التي قبلت بحثا في شعر "العجم". بل استصغر الشأن العلمي لشعبة اللغة العربية، وآدابها في فاس لما وافقت على جعل «كلام الرعاع» موضوع بحث جامعي. وهناك سنسمع من يرفض مجرد الاعتراف بقيمة ذلك الشعر، بثقافته الأمازيغية جملة وتفصيلا.

أقول: في تلك الظروف، فوجئت في بداية يناير 1972 في ذلك المجلس بمدينة أكادير بالفقيه امحمد العثماني، يتدخل ليقنع بعضهم بأهمية الشعر الأمازيغي، ويشجعني على مبادرتي لدراسة "أمارك" في المستوى الجامعي.

لا أنسى كيف همس ذلك الأستاذ في أذني خلال توديعي قائلا «إلتحق بي ضحى غد في منزلي، كي أطلعك على مصادر نادرة، ستفيدك في مجال بحثك».

قبل ذلك المجلس كنت أعرف الفقيه العثماني، كما يعرفه جميع السوسيين، فقيها، يقدم برامج إذاعية باللغة الأمازيغية، من زاوية تخصصه الفقهي، ولكن لا أعرف أنه يعتني بالشعر الأمازيغي، ويحفظ نصوصه ويصون نوادر مصادره.

نعم، في ضحى يوم 2 يناير 1972م الذي التحقت بالأستاذ العثماني لن أنسى كيف بدأ لقاؤنا بإحدى الحكم العملية الطريفة التي فوجئت بها بمجرد ما استويت في جلستي. نعم، سيدخل طفل في حوالي 15 سنة حاملا «صينية براد، وكؤوس» إعداد شراب الأتاي، ويقول له الأستاذ امحمد ضعها أمام ضيفنا، وهو يقدمه لي قائلا هذا إبني سعد الدين

العثماني تلميذ، رغم ميولاته العلمية، فإنني أحرص على أن أطلعه على بحوثي سواء في الفقه، أو في غيره من المجالات التي أعتني بها. كما أعوده على الإحتكاك بما في رفوف خزانتي من المصادر. ويكفي أن أقول لك إنه ساعدني كثيرا على طبع بحثي الجامعي «ألواح جزولة ... » بالراقنة.

كان سعد الدين يوم 2 يناير 1972 في حوالي 15 سنة، طويل القامة، نحيف الجسم، طلق المحيا، عميق النظرات ... سعد الدين ذاك هو الذي سيصير في كبره ، وزير خارجية المملكة المغربية...

بعدما تعرفت عليه، إنصرف في أدب جم، ليقول لي والده في كياسة الأستاذ المربي :

ـ هيا، هيئ لنا «الأتاي».

إعتذرت له قائلا :

ـ أرجو إعفائي ، فأنا لا أجيد إعداده .

فسألني عن مهنتي، هو يعرفها ؟ . فأجبته :

ـ أنا مازلت طالبا! .

فبادر قائلا :

ـ إذا، أنت طالب، تتعلم ما لا تعرف. فتعلم عني أولا، وقبل كل شئ طريقة إعداد الأتاي.

وهكذا، دلني على مايجب فعله. وأسمعني حكما، وأشعارا أمازيغية موضوعها الأتاي، ورمزياته..

*****

بعد ذلك أطلعني على مصادر لفت نظري منها مجموعة من

أسطوانات 78 لفة التي تضم أغاني الروايس، وإلى جانبها آلة الفونوغراف التي بدونها يستحيل سماع تلك الاسطوانات القديمة، ثم إن تشغيلها توقف منذ عقود، وحتى الوسائل التقنية لتشغيلها باتت مفقودة منذ عقود.

رغم تلك الموانع، فإن الفقيه امحمد اتخذ الاحتياطات، فاحتفظ على حق صغير خاص بصيانة "شوكات" - إبر - تشغيل الأسطوانات، التي لاحظت حرصه الشديد على أن لا يلمس بأصابعه أديمها الأسود اللماع كما أراها الآن، رغم أنه اقتناها قبل اليوم بربع قرن وزيادة.

الفائدة المباشرة الأولى لبحثي، بلورها الأستاذ امحمد عبر طريقته المشوقة، التي نصحني خلالها بأن أستعد كي أكتب ما سيقوله لي عن كل أسطوانة. وكذلك فعلت منذ أن تناول أول أسطوانة برفق، وذكر اسم مغنيها، والقبيلة الأمازيغية التي ينحدر منها، وأخبرني عن مدى جمال صوت المغني وطريقة أدائه، وكذلك نوع الآلة الموسيقية التي يبرع رئيس الجوق في عزفها، والإتجاه الطاغي على مضامين مجموع إنتاج صاحب الأسطوانة.

أتذكر أن الأستاذ كان يمهلني حتى أكتب معلوماته السابقة بدقة، ثم يتابع لتذكيري بالأغاني التي سجلها الفنان للإذاعة، أوالتي خص بها شركات التسجيل، ليختم بالعودة إلى الأسطوانة التي بين يديه، مذكرا باسم أغنيتها، وملخص مضمون شعرها، مع التقييم المركز لشعرية قصيدتها...

ثم يصل الفقيه الأديب في تقديم الأغنية إلى إبداء رأيه في لحنها الموسيقي، مدندنا بنغماته، منشدا بيت القصيد منها على الوزن الشعري السليم. ويختم بتذكر ماضي تأثير تلك الأغنية في المجتمع.

عندئذ يعيد الفقيه الأسطوانة إلى غلافها الورقي برفق، ويضعها

جانبا قبل أن يتناول التي كانت تحتها. وهكذا دواليك إلى أن أتى على التعريف الدقيق بجميع الأسطوانات.

أفضت به هذه المرحلة إلى تأمل جميع تلك الأسطوانات، ليختار من بينها إثنتين، وهو يؤكد لي بأن واحدة قد تنفعني في بحثي بطريقة غير مباشرة، وهي للحاج بلعيد. أما الثانية فيؤكد لى أن نفعها المباشر مؤكد، وهي للرايس بوباكر أزعري.

خلال هذا تعمد الفقيه النظر إلي وهو يخاطبني ناصحا إياي بأن أغتنم فرصة زيارتي لسوس، كي أذهب للبحث عن شاعر مايزال على قيد الحياة، كان من معاصري الشاعرين المرحومين بلعيد، وأزعري، وكان بحق شاعر المقاومة الأكبر، إنه الرايس الحسين جانتي الذي يقضي شيخوخته في إحدى قرى قبيلة «أشتوكن»، ويصدق عليه القول "كل الصيد في جوف الفرا" للبحث عن نصوص «شعر المقاومة الأمازيغي».

بعد هذه النصيحة، عدل الفقيه جلسته، وقرب منه آلة الفونوغراف، وهو يخبرني بأنه لم يقم بتشغيلها منذ زمان، وأن «شوكات» - إبر - تشغيلها لم يعد لها وجود في الأسواق في العقود الأخيرة، وحتى ما سبق أن احتفظ به في الحَق الصغير من «شوكات» الاحتياط، فقد ينقص مفعولها، أويزول بفعل التقادم..

ثم، بدأ الفقيه بتركيب أسطوانة الرايس أزعري في الفونوغراف، بحذر الخبير.

بنشوة الألمعي وشغف الباحث، سيمسك بيده اليمنى مقبض اللولب الذي يديره برفق حتى يدل توقف دورانه على أن آلة الفونوغراف معبأة وجاهزة للإشتغال.

في اللحظة التي تهيأ الفقيه لتشغيل الأسطوانة، اقترح علي أن أهيئ بدوري آلة تسجيلي كي أغتنم الفرصة، وأشغلها لتسجيل السماع الأول للأسطوانة التي لم يشغلها منذ زمان، ومن يدري فقد تشتغل في المحاولة الأولى، وتتوقف عن الإعادة ثانية.

بمجرد ما هيأت آلة تسجيلي بدوري، رأيت كيف مرر الفقيه بصمات رأس أصبع سبابته اليسرى على رأس شوكة الفونوغراف، ليتأكد من أن حدتها صالحة للاستعمال.

بمجرد ما انداحت الأسطوانة في دورانها، بادر الأستاذ بوضع رأس الشوكة على بدايتها، ثم سارع ليعتدل في جلسته مع انطلاق صوت الأغنية، وعلامات الإنشراح بادية على ملامح الفقيه، و«الكريم طروب» كما يقال.

بسماعنا للأغنيتين، ونسخهما في شريط آلة تسجيلي، وما واكب ذلك من فوائد الأستاذ امحمد وكتابتي إياها، وكتابة. خرجت بخلاصة أكدت لي أن الأستاذ الأديب الفقيه العثماني، قدم لي أول درس غير مسبوق في الشعر الأمازيغي خلال بداية مشواري العلمي في الجامعة المغربية التي لم يكن فيها يومئذ للشعر الأمازيغي أدنى ركز.

في سياق الحديث مع الأستاذ امحمدالعثماني عن المقاومة في سوس، سيخبرني بأنه وهو تلميذ عند العلامة الحاج الحبيب انخرط في العمل الوطني بما حفزه عليه سلوك أستاذه الذي عاش وانخرط في مقاومة الجنوبيين لزحف الجيوش الاستعمارية. وقد أكد الدكتور سعد الدين العثماني فيما بعد ما أخبرني به والده في تلك الزيارة من كونه « رأس خلية من خلايا المقاومة الوطنية في أيت صواب، ونفته سلطات الحماية الفرنسية إلى مسقط رأسه بتافراوت حوالي 1950 م، ولما سمح له بالعودة إلى مدرسة "تانالت" التي يدرس بها، بقي مدة تحت الحراسة والمراقبة

حتى لا يتصل بأحد...» (ألواح، نفسه).

وسأعلم أنه صال وجال قبل استقلال المغرب في الإمامة والتدريس بعدد من الجوامع والمدارس العتيقة بسوس، وأنه كان ضمن طلبة الرعيل الأول من الشبان السوسيين الذين حصلوا بعصاميتهم على شهادة العالمية من جامعة القرويين بفاس سنة 1958 م، قبل أن يلتحق بسلك التدريس في «المعهد الإسلامي» بتارودانت وهو المعهد الذي أسسته "جمعية علماء سوس" منذ سنة 1956 م في إطار مشروع نهضة علمية طموحة بالمنطقة (ألواح، نفسه). ثم سيصير ملحقا برئاسة جامعة القرويين بفاس في دجنبر 1966م. وقبل زيارتي له بسنة، نال الفقيه امحمد العثماني دبلوم الدراسات العليا سنة 1971م ببحثه "ألواح جزولة والتشريع الإسلامي" من دار الحديث الحسنية بالرباط، تحت إشراف العلامة علال الفاسي.

قبل هذا وذاك، نستدرك القول بأن وفد علماء سوس الذي استقبله جلالة الملك محمد الخامس في دجنبر 1955 م، وكان يضم 130 شخصية، من بينهم فقيهنا امحمد العثماني، ووالده عبد الله، وشقيقه الأكبر الأديب الشاعر محمد العثماني، وهذا الأخير هو الذي تلا كلمة الجمعية أمام جلالة الملك.

أعود لأختم ذكرياتي عن زيارتي للأستاذ، وأقول: بعد تناولنا الغذاء، استأذنته في الانصراف، فإذا به يستمهلني، قائلا في بسط أريحي: إنك لم تسمع إلا شعر بعض الأغاني، ولم تر ما قد يفيدك من المصادر المخطوطة، وهو يناولني نسخة مرقونة، فإذا بي أقرأ عنوانها وأعرف أنها رسالته الجامعية التي نال بها دبلوم الدراسات العليا بعنوان "ألواح جزولة والتشريع الإسلامي".

نظرا لكون وسائل النسخ يومئذ ليست بمثل ما هي عليه اليوم من الوفرة والتطور والسرعة، في مدينة "إنزكان". نظرا لذلك، فإن الأستاذ

امحمد نصحني بأن أشغل آلة التسجيل ثانية، كي يسجل لي بصوته مبحثا من تلك الرسالة يراه سيفيدني فيما أنا بصدده.

وفعلا، بمجرد ما سجلت المبحث بصوت مؤلفه، تأكدت مرة أخرى من أن الفقيه الأديب الذي فاجأني في الصباح بتقديمه ما أعتبره أول محاضرة عن الأدب الأمازيغي، في بداية مسار حياتي العلمية، أقول فاجأني عند عصراليوم نفسه 2 يناير 1972 م، بأن قدم لي ما أعتبره أول تسجيل صوتي لمحاضرة باللغة العربية موضوعها اللغة الأمازيغية، وحرفها " تيفيناغ " وأدبها، ولمحات من حضارتها، ونماذج من الأعمال المترجمة إليها...

في اللحظة التي بدأت أجمع أدواتي كي أترك الفقيه العلامة ليستريح، وهو الذي لم يتوقف عن إفادتي بمعلوماته الغميسة، وبوثائقه النفيسة، وبكرمه الأصيل منذ الضحى إلى قرابة وقت صلاة العصر.

أقول؛ في تلك اللحظة، ابتسم وهو يقول بالأمازيغية : «ها يات سغ ميبا. غيكلي تّينين إيغ سمناصان أحواش» بمعنى "هذه واحدة من مائة، كما يقولون إذا بلغوا منتصف احتفال أحواش". بهذا المثل أقنعني الفقيه بأن انتظر ما سيأتينا به من مكتبته، شخص، ناداه باسم سعدالدين، الذي لبى النداء آتيا له بما دله عليه من المخطوطات القديمة. وقدمه لي قائلا هذا ابني سعدالدين، أحرص على أن أجعله يتمرس بخزانتي ... وهو الذي طبع بالراقنة رسالتي التي سجلت لك على الشريط مبحثا منها

بدا لي سعد الدين في 2 يناير سنة 1972 بشوشا، نحيف الجسم، طويل القامة، مع نظرات فاحصة. وهو الذي سيصير بعد ذلك اليوم بحوالي 40 سنة وزير الخارجية المغربية ...

وكما سبق أن فعل الأستاذ والده حين قدّم لي الأسطوانات السالفة الذكر، واحدة بعد أخرى، كذلك فعل بالمخطوطات التي أكد أنها

جميعها مؤلفة بالأمازيغية. ثم عرف بكل مخطوط على حدة بدءا باسمها إلى مؤلفها أو مترجمها ثم ملخص بموضوعها، فهناك مؤلفات في الفقه، وأخرى في التصوف، وغيرها في الطب، والرحلة، وحتى الشعر «أمارك »!.

ختم الفقيه تقديماته مؤكدا أنه اليوم يشعر بنوع من السعادة، لأن ما كان يؤمن به في مجال البحث العلمي من أهمية صيانة تلك الوثائق، بدأت تظهر بشائر الإنتفاع بها في الأفق. ثم بين لي أن مقصوده هو كونه في الماضي كان يحرص على جمع المخطوطات الأمازيغية مهما كانت حالتها وشرط مالكها أو ثمنها، في زمن كان بعضهم يزدري بها أو يتعمد إتلافها، أو التخلص منها إن صادفها. في حين يحرص هو - العثماني - على صيانتها حتى أدركه من الجيل الجديد الآن من يبحث عنها في مظانها، أو يلتمس نسخها، بل هناك من يرغب في اقتنائها بأثمان مغرية.

توفي امحمد العثماني رحمه الله يوم 30 مارس 1984، في الدارالبيضاء، ودفن فيها.

المصادر:

- العثماني امحمد، خلال لقاء معه، في منزله بإنزكان، طوال يوم 2 يناير سنة 1972 م.

- العثماني امحمد. ألواح جزولة والتشريع الإسلامي. الطبعة الأولى 2004 م.